الإنسان عُلم بالقرآن
ما لم يكـن يعلم

الإنسان عُلِّمَ بالقرآن

ما لم يكن يعلم

أ ـ عُلِّمَ الإنسانُ بالقرآن حِكمة خَلقه، وغَاية وُجوده.

فإنَّ الله لم يخلق شيئاً عبثاً أو باطلاً.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾.[1]

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾.[2]

والذين يتصوَّرون أنَّهم يعملون ما يشاءون في دُنياهم بلا حساب أو جزاء، أو أنهم متروكون سُدَى، يموتون ولا يرجعون، لا يُخطئون فحسب، بل يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

إنَّ حكمة الخَلق تأبى أنْ يُخلق الإنسانُ لدُنياه، ولا يسأل عمَّا قدَّمت يداه.

تأبى أن تكون دُنيا بلا آخرة، ومقدمة بلا عاقبة، وعمل بلا جزاء.

تأبى أن يسوَّى بين مفسد ومُصلح، ومؤمن وجاحد.

فلابُدَّ من يومٍ يقوم الناسُ فيه ـ جميعاً ـ لربِّ العالمين.

---

(1) ص: ٢٧.

(2) المؤمنون: ١١٥، ١١٦.

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝ ﴾.[1]

وبذلك تتَّضح حكمة الابتلاء التي خُلق لها الإنسان، وجعل ما على الأرض زينة لها.

إنها فترةٌ محدودة للخَلق وللزينة، يُجعل كُلُّ شيءٍ بعدها حصيداً كأن لم يَغْنَ بالأمس.

وعندئذٍ يجد الناسُ كلَّ ما عملوه حاضراً في عاقبةٍ ومصير.

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝ ﴾.[2]

﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝ ﴾.[3]

خَلَقَ الله الموتَ والحياة؛ للابتلاء والامتحان.

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝ ﴾.[4]

وَخَلَقَ الله الأرضَ، وجعل ما عليها زينةٍ لها؛ للابتلاء والامتحان.

---

(1) المجادلة: ٦.

(2) آل عمران: ٣٠.

(3) الكهف: ٤٩.

(4) الملك: ١، ٢.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨ ﴾.[1]

بَلْ خَلَقَ اللّه السماواتِ والأرضَ ـ وهُما أكبرُ مِن خَلق الناس ـ ليُبتَلَى الناس بما يُخاطَبون به، من موتٍ وحياة، وبعثٍ وحساب، وجزاء، وجنةٍ أو نار.

وفي الأرض آياتٌ، وفي السماءِ آياتٌ تبصِّر وتُذكِّر.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ ﴾.[2]

مع الابتلاء يعلم الناسُ بأنفسهم عن أنفسهم مَن أحسن ومَن أساء ـ واللّهُ أعلمُ بهم ـ ويكون الحسابُ والجزاءُ على ما وقع من عملٍ عدلاً ووفاء ـ جزاءً وِفاقاً.

وبذا لا يكون للباطل ولا للعبث دَخْلٌ في عمل الإنسان وجزائه.

ولا موضعَ له في فهمه واعتقاده، بعد بلاغ وإنذار.

وجزاء الإنسان على ما قدَّمت يداه. ومصيره مرتبط بما قدَّم من خيرٍ أو شر. ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾.[3]

---

(1) الكهف: ٧، ٨.

(2) هود: ٧.

(3) الزلزلة: ٧، ٨.

وعندئذٍ لا يستوي محسنٌ ومسيء، ومؤمن ومفسد، ومُتَّقٍ وفاجر، في عاقبة ومصير، كما لم يستو هؤلاء في بيان ما جاء به الكتاب وذكّر به، فأعذر وأنذر.

﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾.[1]

بالقرآن عُلِّمَ الإنسانُ حكمة خَلقه وغاية وُجوده.

وأنَّه ما خُلِقَ إلاَّ ليُخلص في عبادة ربِّه

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[2]

وقد يجهل الناسُ أبعادَ هذه الحقيقة، أو يحصرونها في أضيق صورة، من شعائر دينهم، أو عمل دُنياهم.

وهم بذلك يُخطئون ويُسيئون.

إنَّ ما خلقهم الله له لا يُحصر ولا يُحَدُّ بأهوائهم وشهواتهم.

فإنَّ الحقَّ - في تحديد ما خُلِقوا له، من الإخلاص في عبادة ربِّهم، وعدم الإشراك به - لا يكون إلاَّ من الله عزَّ وَجَلَّ.

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾.[3]

---

(1) ص: ٢٨، ٢٩.

(2) الذاريات: ٥٦.

(3) المؤمنون: ٧١.

وَلَمْ أَرَ شيئاً ظُلِمَ في حياة الناس كما ظُلمت هذه الحقيقة، حين حُصرت فيما يهواه الناسُ، لا فيما يرضاه الله.

عبادةُ الله لا تفارقُ شيئاً من سَعى الإنسان على الإطلاق.

لا تُبارح ظاهرَه وباطنَه.. سِرَّه وَعَلَنه... قَوْلَه وَفِعْلَه.

لا تُبارح الفردَ، ولا الأسرة، ولا الأُمَّة، ولا المجتمع الإنساني في روابطه وتعامله، وإقامة العدل في كل شأن من شئونه.

وَا عَجَباً حين تُحصَر هذه العبادة في ركعاتٍ وسَجَدات، أو في صيامِ ساعات، أو دَفْع زَكَوَات قد تضيع كلها في ظُلم أو بَغيٍ وإساءات.

ويأتي أصحابهُا عند ربِّهم مُفلسين ممَّا أقاموا من عباداتٍ، حسبوها تُغنيهم، فضيَّعوها بسُوء فَهمهم لمعنى الإخلاص في العبادة، وخُلُوِّها من المحبطات والمفسدات والمبطلات.

وقد زُكِّيَت عند رسول الله ﷺ امرأة، تصومُ نهارَها، وتقومُ ليلَها، ولكنها تُؤذي جيرانَها بلسانِها.

فقال ﷺ: « لا خيرَ فيها، هي من أهل النار »[1]

العبادةُ لله طُهْرٌ، وعِزٌّ، واستقامةٌ، وعَدلٌ، وعِلمٌ، وَجَدٌّ، وعملٌ، وبرٌّ، وصبرٌ واثِقٌ، لا يأسَ معه ولا قنوط، وهِمَّةٌ عاليةٌ في طلب المعالي، والبُعد عن سفاسف الأمور.

فإذا رأيت أضداد هذه الصفات في سُلوك أفرادٍ أو جماعات، فاعلم

---

(1) رواه أحمدُ عن ابي هريرة (٩٢٩٨) ورواه الحاكمُ في المستدرك، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

أنَّها قد أساءت فَهْمَ العبادة في اعتقادٍ أو تطبيق.

وقد تُساق الأُمَّةُ إلى جهنم - وهي تزعم أنها تعرف ربَّها - لا لشيء إلاَّ أنها رَضِيت بأن تكون مستضعَفَة في الأرض، ولم تأخذ بأسباب نهضتها وعِزِّها، في أرض واسعة موفورة الأسباب؛ لحِفظ كرامة وفضل.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾.[1]

إنَّ العبادة الخالصة لله تُحقِّق في الإنسان عِزَّاً، لو أراد أن يكون معه دونَ ذلك مَا استطاع.

وقد رأينا "جعفرَ بن أبي طالب" وهو مهاجرٌ بالحبشة، وله حاجة في بقائه ومَن معه مهاجراً، وقد أرسلت قريش في طلبهم.

فجاءت لحظةٌ اختُبِرَ "جعفرُ" فيها في أَعَزِّ ما يعتزُّ به، من عبادة ربِّه.

حين فشل موفَدُوا قريشٍ في إقناع "النجاشي" بعودتهم، وأرادوا أن يُحقِّقُوا شيئاً من إغارة الصدور عليهم.

فقالوا لبطانة النجاشي: « أطلبوا منهم حين يأتون أن يُحَيُّوا النجاشيَّ، كما تُحيُّون ».

وكانت التَّحيةُ سجوداً، أو قريباً من السجود.

فخاطبوا جعفر ابن أبي طالب - رضي الله عنه - بذلك، وأرادوا أن

---

(1) النساء: ٩٧.

يُحقق لهم ما طلبوا.

فَأَبَى كُلَّ الإبَاء.

وقال: « لا نسجد إلاَّ لله ».

قال ذلك في وقتٍ قد تُستباح فيه الحِيلة.

ولكنَّ عزَّته بعبادة ربِّه، والإخلاص له، لم تجعله يعطي شيئاً من حقِّ هذه العبادة لأحدٍ سواه.

الإنسانُ خُلق ليعبد ربَّه. فإذا رأيته عبداً لشيءٍ سواه، فاعلم أنه سيُصاب بشتى ألوان الذُّل والهوان.

ذُلُّه لقطيفةٍ، أو منصبٍ، أو جَاه.

ذُلُّه لحصولِ ما يعبده من دون الله، من درهم أو دينار.

وَتَعِسَ مَن يعبد غيرَ الله.

الإنسانُ عُلِّمَ بالقرآن حكمة خَلقه، وغَاية وُجوده.

وهذه الحكمة والغاية هي ـ وحدها ـ التي يصلح بها في ذاته، ويصلح مع غيره.

هي التي يُناطُ بها سِلْمُه وأَمْنُه، ويحفظ بها حقُّه وحق غيره.

هي التي ينحسر بها الغلو والبغي، وطلب العلو في الأرض والفساد.

ويجد بها الناسُ ـ جميعاً ـ مساواتهم ـ بلا ادِّعاء ـ في الحقوق والواجبات، حيث لا يعبدون إلاَّ الله، ولا يتخذ بعضُهم بعضاً أرباباً من دون الله.

وتلك ما أُمِرَ رسولُنا ﷺ أن ينادي بها أهلَ الكتاب:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.[1]

أي: إن تولّى أهلُ الكتاب عن الاستجابة لكلمة سواء - في تقرير الحقوق والمعاملات - فاشهدوا أنتم على أنفسكم - بعملٍ وواقع - أنّكم مستمسكون بها، مُخلصون لها.

مستمسكون بها في حقيقتها.

ومستمسكون بما تدعو إليه من عدلٍ ومساواة.

لأنّكم - بذلك - ستكونون أهلاً لها، لا تَهينون، ولا تُستَضْعَفون، ولا تُستذلون.

وعندئذ سيستجير بكم مَن ليس منكم، فتجيروه.

ويحتكم إليكم مَن يخالفكم، فتُنصفوه.

ولكن عليكم أن تصدقوا في نداء مَن تدعونهم إلى كلمة سواء

وأن يُرَى الصِّدقُ فيما بينكم، في روابطكم ومعاملاتكم، وإصلاح ذات بينكم.

يُرَى الصدق في تميّزكم وانتصار الفضائل في أنفسكم.

وتكونون بها - وبالعمل بمقتضاها - خيرَ أُمَّةٍ أُخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله.

---

(1) آل عمران: ٦٤.

ولا يلزم من النداء بها، والدعوة إليها أن يكون الناس جميعاً على دين واحد ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[1]

وإنَّما الذي يكون هو أُمَّةُ خيرٍ تدعو إليه، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتصدق فيما تدعو وتأمر وتنهى، فتُنصف المظلومَ ولو كان من غيرها، وتأخذ على يَدِ الظالم ولو كان منها.

وحين تُوجد هذه الأمة تكون ـ في ذاتها ـ دعوة صادقة لعبادة ربِّها.

بمكانتها، وقوَّتها، وقُدرتها على تحقيق العدل، وَدَفْعِ الظلم، لا فيما بينها فحسب، بل في رُبُوع الأرض كلها.

وعندئذ تكون غالبة بتأييد الله لها، منتصرة بأسباب النصر، التي يبعُد بها الفشل، وذَهَاب الرِّيح، ويُصان الحق، ويُقام العدل والقسط.

والناس يرون ـ في كل عصر ـ ماذا يكون شأن الأُمَّة القويَّة في التأثير على الناس، ومحاولة تقليدها، أو الركون إليها.

فإذا وُجدت الأُمَّةُ القويَّةُ العادلة، التي يستظل الإنسان بعَدْلِها حيث كان، فذلك ما يُرْجَى من حكمة وغاية خَلق الإنسان.

وذلك ما من أجله أرسل الله الرسلَ بالبيِّنات، وأنزل الكتاب والميزان.

﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ

---

(1) يوسف: ١٠٣.

وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.[1]

والأُمَّةُ التي تعبد ربَّها ـ أو تدَّعي ذلك ـ إنْ لم تكن كذلك، فقد يستبدل اللهُ قوماً غيرها.

﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾.[2]

ذاك ما تعلَّمه الإنسانُ من القرآن.

كما تعلَّم أسبابَ تحقيق ذلك : بالعلم والعمل..

العلم بدُنياه بدافعٍ من دينه.

والعلم بدينه لصالح دُنياه وآخرته، بلا تفرقة.

وأن يكون العلمُ عملاً وفضلاً وخُلقاً.

و« فِقه التدين » يقتضي أن لا تُثار قضايا الدِّين بعيداً عن الواقع، ويُعالَج الواقع بغير فطرة الدِّين.

والإنسان قد عُلِّم بالقرآن كيف يحيا حياةً طيِّبة في دُنياه، ويفوز برحمةِ الله في أُخراه، في امتزاج فطريٍّ لا تبايُنَ فيه، ولا تعارض ولا تناقض.

فإنَّ الثواب في الآخرة قد يتحقق للإنسان وهو يباشر شهوته، ويُحقِّق مُتعته، ما دام لا يبغي ذلك إلاَّ فيما أحلَّ الله له.

قال ﷺ: « وَفِي بُضْعِ[3] أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ »

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ ؟!

---

(1) الحديد: ٢٥.

(2) محمد: ٣٨.

(3) البُضْع: يُطْلَقُ على الجماع وعلى الفَرْج نفسه.

قَالَ: « أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ ؟
فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ، كَانَ لَهُ أَجْرٌ »[1]

وعندما نقول: « يتعلّم شئونَ دُنياه بدافعٍ من دينه » إنما نريد لنتائج العلم أن تُصانَ من عَبَثِ العابثين وبغي المتسلطين؛ ذلك أنَّ للعلم نتائجه، وقِيَم الإنسان وأخلاقه هي التي تُصان بها النتائج، فلا يدمر الإنسانُ بنتائج العلم ما يُعَمِّر، ولا يسوق الفناء إلى ما شيَّد من بناء.

خُذْ مَثَلاً "الحديد" الذي ذكره الله في الآية الكريمة:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.[2]

« الحديدُ فيه بأسٌ شديد ومنافعُ للناس ».

والله قد أنزل الحديدَ وهو يعلم ما فيه من قوَّةٍ، وما فيه من منفعة.

والإنسان هو الذي يستعمل الحديدَ في هذه أو تلك.

ولابُدَّ لاكتشافه وصياغته على نحوٍ ما من علم وعمل.

والإنسان هو صاحب الغاية فيما يقصد ويعمل..

فلابُدَّ من العناية بالإنسان ـ أوّلاً ـ بتحديد رسالته، وبيان غايته.

وهذا ما كان، إذ نرى الآية الكريمة ـ قبل أن تذكر الحديد وما

---

(1) مسلم: كتاب الزكاة.

(2) الحديد: ٢٥.

فيه من قوَّة ومنفعة ـ تذكر ما يصلح به أمر الإنسان، من منهج ومقصد.

حيث قال الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾

قال الله ذلك قبل أن يقول: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ... ﴾

وهُنا يكون الامتحان والاختبار للإنسان حيث كان، وقد توفَّرت في يده أسباب القوة والمنفعة، وتحدَّدت الرسالة والغاية.

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾

ويستطيع الإنسان ـ بلا عَناءٍ ـ أن يرى نتائج العلم والعمل في سلوك الأفراد والأمم.

يستطيع أن يجيب: هل استُعملت أسباب القوة والمنفعة في نَصْرِ الله ورسله ؟ أم استُعملت ـ عند كثير ـ في غير ذلك ؟

وماذا كانت النتائج في سِلم الإنسان وأَمْنه، في نفسه ومع غيره ؟

إنَّ نَصْرَ الله ورُسله معناه: نَصْرُ الفضائل والمكارم.

معناه: إقامة العدل مع العدوِّ والصديق، والقريب والبعيد.

معناه: استعمال الحديد لردْعِ الظلم والبغي والفساد.

وذلك هو الدَّفْعُ الذي عَنَتْهُ الآية الكريمة.

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾.[1]

نصْر الله ورُسله لمصلحة الناس، والله غنيٌّ عن العالمين.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾[2]

وإذنْ هو الامتحان والاختبار للإنسان، دون حاجةٍ لله في عمل الإنسان.

امتحان واختبار يترتب عليه حسابٌ وجزاء لِمَن أحسن أو أساء.

وَمُلْكُ الله لا تُزيده طاعةُ طائع، ولا تُنقصه معصيةُ عاصٍ.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾.[3]

ومن أوَّلِ ما نزل من الوحي علَّمنا القرآن بمَ تُصان النتائج ـ نتائج العلم ـ لمصلحة الإنسان؛ حتى لا يقع بغي أو طُغيان.

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ ﴾.[4]

---

(1) البقرة: ٢٥١.

(2) الحج: ٧٤.

(3) إبراهيم: ٨.

(4) العلق: ١ ـ ٨.

يا الله.. يُتلى ذلك على النبيِّ الأُمِّي، الذي لم يقرأ ولم يكتب.

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾.[1]

ولا أحد يجهل ما صنع القلمُ في حياة الإنسان، بل في حضارة الأمم ونهضتها. ما صَنَعَ في علمٍ وعمل، وتواصل وترابط، وعهود ومواثيق.

﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ ﴾[2]

« نَبَّه - تعالى - بهذا على فضل عِلْمِ الكتابة؛ لما فيه من المنافع العظيمة، التي لا يحيط بها إلاَّ هو؛ فما دُوِّنت العلوم، ولا قُيِّدت الحِكَم، ولا ضُبطت أخبار الأوَّلين ومقالاتهم، ولا كُتُب الله المنزلة، إلاَّ بالكتابة. ولولا هي ما استقامت أمورُ الدِّين والدنيا. ولو لم يكن على دقيقِ حِكمة الله ولطيفِ تدبيره، دليل إلاَّ القلم والخط، لَكَفَى به ».

﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾[3]

ولا يستطيع إنسان أن يُحصي ما تعلَّمه الإنسان - في شتَّى ينابيع العلم والمعرفة - وما ترتب على ذلك من تفوُّق مُذهل في مجال الصناعة وعلوم الفضاء، بل في مجالات شتَّى من شئون الحياة، حتى سلبت مظاهرُه كثيراً من عقول البشر، وغدا مَثَلاً أعلى عند كثير ممَّن أُخِذوا به، وفُتِنوا بمظاهره.

---

(1) العنكبوت: ٤٨.

(2) العلق: ٤.

(3) العلق: ٥.

ولكن بقَدْر التفوق المذهل في انطلاق المادة ـ في عصرنا هذا ـ نرى التخلف المزري في تقدير قيمةِ الإنسان، والمحافظة على حقوقه وكرامته.

أَفْلَتَتْ نتائج العلم، ولم يستطع أحد ـ ممَّن فُتنوا بهذه النتائج ـ أن يسيطر عليها.

وغدا الإنسانُ بها مُهدَّدا في يومه، خائفاً من غده.

وَفُقِدَ التوازن، واختفى العدل.

وتحوَّلت أقواتُ الجياع إلى بطون المدافع.

وأحرز الإنسان من قوة الحديد وبأسه ما يظن به أنه قادر على سحق الأرض وما عليها.

وأذكرُ أنَّ رئيسَ أَحَدِ الكُتلتين، قال ـ في حِدَّةٍ ـ للآخر:

"عندنا من الأسلحة ما يدمر الأرض كلها".

فقال له الآخر: "ونحن عندنا ما يدمرها أربعين مرة".

فقلتُ في نفسي: "يا الله ! عندما يطغي الإنسان ويستبد، لا يقف بطغيانه عند نفسه، بل يمتد طغيانه حتى يصل إلى هذا الحد، الذي يتباهى فيه أنه يدمر الأرض ـ بما يملك من قوة ـ أربعين مرَّة".

هذا السُّعار في إحراز القوة، والتهديد بها، والتفاخر والتعالي أَنْسَى هذا القائل أنَّ تسعاً وثلاثين مرَّة لا حاجة إليه فيها، ما دامت الأرض قد دُمِّرت.

والناس جميعاً يعلمون أنَّ القوم الذين أحرزوا هذه القوة مغتصبين لأقواتِ شعوبٍ وأُمَمٍ.

وإذا كانت أقواتُ الجياع قد حُشرت في بطون المدافع، وفي إعداد أسلحة الخراب الفاجع والدمار الشامل.

فإنَّ الذين تطلَّعوا إلى الغد المنشود ـ بعد ويلاتٍ وأزمات، في حروب باردة وساخنة ـ لم يلبثوا أن رأوا أن التخلص من أسلحة الدمار الشامل يخضع لموازين الأقوياء من أصحاب المصالح، الذين لا يرون للشعوب المطحونة شأناً، ولا يُقيمون لمصالحها وَزْناً.

كم أنفقوا في إعداد أسلحة الدمار الشامل ؟

وكم يُنفقون في التخلص منها، أو من نفاياتها ؟

وكم شَقِيَ الإنسان، ويشقى في الأحوال كلها ؟

ذاك ما كان من نتائج العلم حين رأى الإنسانُ نفسه قد استغنى به.

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾[1]

طَغَى بالعلم، واستبدَّ بنتائجه.

وضاع الأمن والسِّلمُ من حياة الإنسان، وظُلِمَت كلماتُه، وأُصيب منتظروه بالإحباط واليأس، حين رأوا أنَّ المنظمات العالمية ـ مع ضرورتها ـ لا يمكن أن تُحقق للناس أَمْنا، أو تقيم في العالم سِلْماً.

وغاب عن هؤلاء أنَّ الأمن ـ في حقيقته ـ يرتبط بصفات النفس.

والسِّلْمَ ـ في جوهره ـ يرتكن إلى القيم والأخلاق.

فلابُدَّ من الرجوع إلى الإنسان الذي أُنْزِلَ من أجله القرآن؛ لمعرفة ما

---

(1) العلق: ٦، ٧.

يسيطر على فكره من مذاهب، وما يتحكم في سلوكه من دوافع، وما يُحدِّد سَعيه من غايةٍ؛ حتى يستعمل بأس الحديد في نَصْرِ الله، لا فيما تفرضه شهوته وهواه.

وقد غاب عن الإنسان علاج ما يكون فيه من بغي وطغيان.

ووقف في علاج ذلك عند حلولٍ مؤقَّتة، لا يلبث أن يرى قصورها في تحقيق أَمْنٍ أو سِلْمٍ، كالمنافسة في المزيد من إحراز القوة والبأس.

وهو تنافس مسعور، لا يقف عند حَدٍّ ما لم تحكمه ضوابط النفس، وتحرسه حصون الحق والعدل لأُمَّةٍ تُخضع قوتها لنصرة الله ورسله؛ حتى تجعل العدل ميزاناً بين الخَلق. ولن يكون ذلك إذا فرَّط الناسُ في اعتقاد ما يعالج به طغيان الإنسان.

ومَن يتدبر المناسبة بين قوله تعالى:

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾

وقوله: ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ ﴾

عرف السبيل إلى معالجة الطغيان عقيدة وإيماناً.

والإيمان نيَّة، وقول، وعمل.

عملٌ يُصان به الاعتقاد، وتُحرس ضوابطه وحدوده.

العلاج لطغيان الإنسان ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ ﴾.

اليقين بالعَوْدِ إلى الله، والحساب بين يديه.

ذاك ما يَئِدُ الجريمةَ المُبيَّتة في نفس صاحبها قبل أن تُولد.

ويجعل الإنسان ـ خَوْفاً من ربِّه ـ يُقدِّمُ خيرَه، ويكف شرَّه.

وما يجعله يُخضِعُ بَأْسَ الحديد لما يُرضِي الله وينصره، لا لما يُغضبه ويُسخطه.

وأيُّ تفريطٍ في إقامة العدل والقيام بالقسط، معلوم لله، الذي قال:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾.

فالعدل لا تُحدِّده أهواءُ الناس ولا شهواتُهم..

ولا يُترك تحديده لمآربهم، التي ترتبط كثيراً بمنافعهم.

وإنَّما هو مُحَدَّد من عند خَالِقهم جميعاً ورازقهم.

والذي لا تغيب حقيقته عن علمهم وفطرتهم.

ومن أجل إقامة العدل، وحراسةِ موازينه، أُنزل الحديد فيه بَأْسٌ شديد، ومنافعُ للناس؛ ليعلم موقف الناس من هذه القضية، التي تتصل ـ كُلَّ الاتصال ـ بسلامهم وأَمْنهم.

إذْ لا سلامَ بلا عَدْلٍ، ولا أَمْنَ بلا إقرارِ حَقٍّ.

والحديدُ ـ في بأسه وقوَّته ـ مُتاحٌ للناس جميعاً.

وهم ـ جميعاً ـ مُمْتَحَنُون، وإلى الله جميعاً راجعون.

وما بأيدي الناس هالكٌ، وهم هالكون.

﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.[1]

---

(1) القصص: ٨٨.

وهذه الحقيقة ـ ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ إليه لا إلى غيره ـ كافية في رَدْعِ الإنسان في ذاته، إنْ هُو آمن بها وأيقن.

ولكن، هل كل الناس بها مؤمنون حتى نبتغي الأمن والسلام في الإيمان بها، والعمل بمقتضاها ؟

﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.[1]

من هُنا يعلمنا القرآن أنَّ الدَّفْعَ سُنَّةٌ من سُنن الله، به يُردَعُ الشر، ويُحسَمُ الفساد.

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾.[2]

من هُنا لا تجد فطرةَ الناس ـ في أيِّ مكانٍ ـ تُنكر على أحدٍ أن تكون له قوَّته وعتادُه، ولكن الذي يُنكَر هو: كيف تُستعمل القُوَّة ؟

وإذا كان أكثر الناس لا يؤمن بالعَوْد إلى الله، وإذا آمن لا يعمل بمقتضي إيمانه، فما السبيل لرَدْعِ البغي والطغيان ؟

السبيل ـ مع التذكير بالرجوع إلى الله، والحساب بين يديه ـ هو الإعداد للقيام بالدَّفْعِ كما أمر الله، وكما هو قائم في كل جزئية من جُزْئيَّات الحياة.

والذين يُنَحّون هذا الدَّفْع من تقديرهم، ويظنون ـ واهِمين ـ أنَّ

---

(1) يوسف: ١٠٣.

(2) البقرة: ٢٥١.

السَّلامَ والأَمْنَ يتحقق بدونه لا كما شرع الله، يخطئون في حقِّ الأمن والسَّلام، كما يخطئون في حقِّ أنفسهم.

ولذا أمر الله بإعداد القوَّة العادلة، التي تخضع ـ خضوعاً كاملاً ـ لمرضاة الله، والاستجابة لأمره، في قوله:

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾.[1]

وإعداد القوة التي أمر الله بها ـ كما نرى ـ ليس فيها مجال لاتِّباع الهوى، فهي قوة يُرْهَبُ بها عدوُّ الله أوَّلاً.

فإنَّ عداوتهم ليست هي الأصل في إعداد القوة، وإنما الأصل في ذلك أن عداوتنا تَبَعٌ، فمَن عادى الله عاديناه.

وتلك ـ حين تُنْصَفُ موضوعياً ـ يُعلَمُ منها أنَّ ذلك في مصلحة الإنسان حيث كان؛ لأنَّ نَصْرَ الله نَصْرٌ لحقوق الإنسان، وَبِرٌّ به، وعِصمةٌ له من البغي والفساد.

ولكن المفاهيم ـ في كثير ـ ظُلمت، كما ظُلم مفهومُ (الأمن) و(السَّلام).

ومن الواضح البَيِّن أنَّ الله قد قيَّد نَصْرَ من ينصره بقوله:

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[2]

---

(1) الأنفال: ٦٠.

(2) الحج: ٤٠.

فمَن نصر الله في نفسه، نصره ربُّه.

بل قال عمَّن ينصرهم ـ وقد فرض ذلك عليهم ـ:

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾.[1]

فمَن ينصرهم الله عليهم ضريبة لابُدَّ أن يقوموا بأدائها، وإلاَّ جُرِّدوا من نَصْرهم.

ولم تكن العاقبة لهم ﴿ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾

وهي لن تبقى وتدوم إلاَّ لمن دفع ضريبة النصر والتمكين في الأرض.

إقامة الصلاة: ولا تَسَلْ عمَّا تؤدِّيه في حياة الناس من طُهْرٍ، أي طُهر.

وإيتاء الزكاة: ولا يخفى ما فيها من زكاةٍ وطُهر، وما تحققه من ترابط وبِرٍّ.

والأمر بالمعروف: وفي المعروف برٌّ بالناس جميعاً وخير.

والنهي عن المنكر: وفيه ما فيه من حَسْمٍ لأسباب الفساد والشر.

تلك ضريبة من يُمَكَّنُ لهم بالنصر.

ومداولةُ الأيام بين الناس دوَّارةٌ، لا تَدَع من يبغي الفساد في الأرض دون رَدْعٍ، ولا تَدَع مَن يتطاول بالنعمة ويختال بها، دونَ أخذٍ أو خَسْفٍ.

ولا تترك من يقول: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾[2] ـ تطاوُلاً على الخَلق ـ

---

(1) الحج: ٤١.

(2) النازعات: ٢٤.

دونَ أن يُؤخَذَ بذنبه، ويُهلك بمعصيته.

ليُوقِنَ النَّاسُ أنَّ عقيدة ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ ﴾[1] ليست عقيدة مجردة عن قوة، وليست مجرَّد بلا غ للناس، بلا شهود واقتدار.

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٢ ﴾.[2]

أرأيت على مَن تكون الخسارة، خسارة هؤلاء الذين لا يوقنون أنهم إلى ربهم راجعون ؟

إن خَسَارتهم على أنفسهم.

﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٢ ﴾[3]

ولأترك لك أن تتدبر بقلبك حكمةَ الجمع بين قوله: ﴿ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ وقوله: ﴿ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾.

لتكون لك مع علاج البغي والطغيان وقفة رُشد وتدبر.

تحتاج منك ـ أوَّلاً ـ أن تحقق هذا العلاج في نفسك، قبل أن تنشده في غيرك؛ فإنَّ علاجَ أمرك كله فيما جمعه "لقمانُ" لابنه في كلمة،

---

(1) العلق: ٨.

(2) الأنعام: ١٢.

(3) الأنعام: ١٢.

حيث قال:

« اثنان لا تنسهما قط: الله، والدار الآخرة ».

فإنَّ هذا النسيان هو الذي دمَّر حياةَ الناس، وأشاع فيهم البغي والفساد.

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.[1]

ذاك ما تعلَّمناه من القرآن.

كما تعلَّمنا كيف تكون مداولة الأيام بين الناس عدلاً قائماً على علمٍ وقُدره.

علم مَن أحاط بكُلِّ شيءٍ علماً.

وقدرة مَن لا يُعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض .. إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً.

مُداولةُ الأيام بين الناس سُنَّةٌ من سُنن الله..

وهي آية من آياته، مُعبِّرة عن عِلمه وقُدرته.

فمَن أحبَّ أن تكون الأيام له لا عليه، فليعرف السبيل؛ فإنَّ سُنَنَ الله لا تُجامل ولا تُحابي، ولا تتبدل ولا تتحول.

ولا صلة لهذه السُّنة من سُنن الله لما يتمناه الإنسانُ أو يرجوه، دون عمل وأخذٍ بالأسباب التي بيَّنها الله، وأرسل من أجلها الرسلَ، وأنزل

---

(1) الحشر: ١٩.

الكتابَ.

وقال سبحانه:

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾.(1)

تعلّمنا من القرآن:

كيف يكون التعاون على البرّ.

إذ عرفنا أن البرَّ ليس مجرد عطفٍ على محتاج أو فقير، وكفى ..

وإنّما البرُّ ـ الذي يُحقق غايته في توازن الحياة ـ هو ما بيَّنه القرآن، ووصف القائمين به، في قوله تعالى:

﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾.(2)

فالبرُّ ليس صفةً للنفس تنعزل بها عن شئون الحياة.

---

(1) النساء: ١٢٣، ١٢٤.

(2) البقرة: ١٧٧.

وإنما البرُّ - وهو يقترن بالتقوى - معنىً يشمل جميعَ ما يتحقق به صلاحُ الحياة.

ولذا جاء الأمر من عند الله بالتعاون على البرِّ مقترناً بالتقوى، في قوله تعالى:

﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾.[1]

هكذا جاء الأمر والنهيُ من الله للذين آمنوا.

الأمرُ بالتعاون على ما لا تصلح الحياة إلاَّ به ﴿ ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾

والنهي عن كل ما يُفسد شأنها، ويدمر روابطها ﴿ ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾

وما أمر الله - تعالى - بالتعاون على تحقيقه يبرُّ بجميع الأحوال، ولا يخُصُّ جانباً من الحياة دون جانب.

والبرُّ اسمٌ جامع لكل طاعةٍ لله وللرسول. شامل لأعمال الخير المُقرِّبة إلى الله، الموجبة للثواب، المؤدِّية إلى الجنة.

فلا انعزالَ في أداءِ الخيرِ والكَفِّ عن الشَّر، بل عزمٌ وصِدقٌ وصَبرٌ.

ولا شُحَّ في إحسانٍ أو صدقة، بل إعطاءٌ في رغبةٍ وحُبّ.

ولا تقاعُدَ عن إنصافِ مظلومٍ ومنع ظالم، بل جهادٌ في رَدْعِ هذا، ونَصْرِ ذاك، كما أمر رسول الله ﷺ بقوله: « انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا ».

فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا

---

(1) المائدة: ٢.

كَانَ ظَالِمًا، كَيْفَ أَنْصُرُهُ ؟

قَالَ: « تَحْجُزُهُ ـ أَوْ تَمْنَعُهُ ـ مِنَ الظُّلْمِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ ».[1]

ولا نقضَ لعهد ولا غدر، بل وفاء وصِدق في كل عهد وميثاق، سواء كان بين العبد وربِّه، أو بينه وبين الناس.

ومن قصَر البرَّ على ما تهواه نفسه من أمر الدِّين، لم يسلم من اتِّباع خطوات الشيطان فيما يدعو إليه ويأمر به.

والله يأمر عباده المؤمنين به المصدِّقين برسوله أنْ يأخذوا بجميع عُرَى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره ما استطاعوا، وترك جميع زواجره.

حيث قال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٠٩﴾ ﴾.[2]

﴿ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ ﴾ يعني الإسلام ﴿ كَآفَّةٗ ﴾ أي: اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البرِّ، كما قال ابنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ.

﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾ أي: اعملوا بالطاعات، واجتنبوا

---

(1) البخاري: كتاب الإكراه.

(2) البقرة: ٢٠٨، ٢٠٩.

ما يأمركم به الشيطانُ؛ فإنه يأمر بالسُّوء والفحشاء

﴿ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ﴾[1]

ولهذا قال الله: ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٢٨ ﴾

﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ أي: عدلتم عن الحقِّ بعدما قامت عليكم الحُجَج ﴿ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ في انتقامه، لا يفوته هاربٌ، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في جميع أمره ونهيه.

فلا مجالَ ـ بعد هذا البيان ـ لقَصْر البرِّ على ما تهواه النفس أو ترضاه؛ فإنَّما البرُّ في طاعة الله، ولو كان فيه ما تكرهه النفس أو تأباه.

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٢١٦ ﴾.[2]

ولذا جاء في آية "البرّ":

﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝١٧٧ ﴾[3]

فلم يكن البرُّ مجرَّد ركعات تُستروح بها النفسُ.

---

(1) فاطر: ٦.

(2) البقرة: ٢١٦.

(3) البقرة: ١٧٧.

وإنَّما قد يكون البرُّ في ميدانٍ تُباعُ فيه النفس، وهي لا تُباع إلاَّ لله.

وسِلْعَةُ الله غالية « أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّة »[1]

وذاك ثمنُها:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾.[2]

يُخبر الله تعالى أنَّه عَاوَضَ من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم ـ إذا بذلوها في سبيله ـ بالجنة.

وهذا من فضله وكَرمه وإحسانه؛ فإنه قَبِلَ العِوَضَ عمَّا يملكه بما تفضَّل به على عبيده المطيعين له.

ولهذا قال الحسنُ البصري ـ رحمه الله ـ:

« بَايَعَهُم اللهُ فَأَغْلَى ثَمَنَهُم ».

قال عبدُ الله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ لرسول الله ﷺ يعني ليلة العقبة: اشترط لربِّك ولنفسك ما شئت.

قال ﷺ: « اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً.

---

(1) الترمذي: كتاب صفة القيامة، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لاَ نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ حَدِيثِ أَبِى النَّضْرِ.

(2) التوبة: ١١١.

واشترطُ لنفس أن تمنعوني ممّا تمنعون منه أنفسكم وأموالكم ».

قالوا: فمَا لنَا إذَا فعلنا ذلك ؟

قال: « الجنَّة ».

قالوا: رَبحَ البيعُ. لا نقيل ولا نستقيل.

❊ ❊ ❊